
القوافي
مجلة شهرية تصدر عن دائرة الثقافة بالشارقة
السنة السادسة - العدد (62) - أكتوبر 2024
تُعنى بالشعر والأدب العربي
ظُفار العُمانية..
عطر يفوح في قصائد الشعراء
صورة الوطن
في عيون الشاعرات
الجِسر..
صور متعددة تقف
على ضفاف القصائد

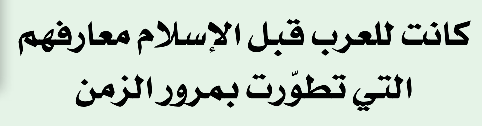
فَتحَ الباب للاستشهاد بالقرآن ومحاكاة معانيه

# الشّعر في فَجْر الإسلام..

## تطوّرٌ وانفتاح على مَعانٍ غير مسبوقة


د. محمود الضبع
مصر

أحدث ظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية، نقلة نوعية في مسار العرب ومسيرتهم، تنوعت آثارها في مختلف أشكال الحياة، وأنتجت نمطاً من الحضارة هو المعروف عالمياً بالحضارة الإسلامية، وما تميّزت به من علوم وفنون وتقاليد خُلقية ونظم اجتماعية.



**كانت للعرب قبل الإسلام معارفهم التي تطوّرت بمرور الزمن**

وقد يتصوّر بعضهم أن العرب قبل الإسلام كانوا قوم جاهلية لا معارف لهم أو علوم، وإن كان هذا غير صحيح، فالجاهلية لم تكن تعني التّضاد مع العلم، وإنّما تعني كل العادات المضادّة للحلم، وبخاصة منها ما يتعلّق بالتفاخر والتنابز، والتمييز الطبقي بين أفراد القبيلة الواحدة، وغيرها من عادات نهى عنها الإسلام نهياً قاطعاً.

ومن جهة أخرى كانت للعرب - قبل الإسلام - معارفهم التي تطوّرت بمرور الزمن، نتيجة للخبرة والتأمّل واستخلاص حكمة الحياة، وهي المعروفة عنهم حتى اليوم، مثل علم الأنواء ومهابّ الريح، والنجوم، والكهانة والعرافة، والقيافة (اقتفاء الأثر)، والتطبيب الشعبي، والتاريخ والأنساب.. وأخيراً علوم الأدب والشعر والخطابة، والأمثال والحكم وقصص الحكمة.

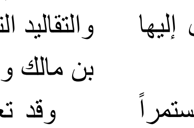
وكان الشعر قد بلغ منتهاه لديهم، وأجاد فيه كثُر، وصاغوا فيه المعلّقات والقصائد الطوال من غير المعلّقات، ومما جُمع بعضه لاحقاً، وبخاصة في العصر العباسي، بل كان علمهم الذي تميّزوا فيه وأجادوا؛ وكما قال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه «كان الشّعرُ عِلمَ قَوْمٍ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عِلْمٌ أَصَحُّ مِنْه». وكما تعددت روايات الحديث عن رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم «إنَّ مِنَ البَيان لَسِحْراً، وإنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحْكْمَةً». ومنه - كذلك - ما أورده ابن سلّام الجمحي «وكان الشعر في الجاهلية عند العرب ديوان علمهم،



ومنتهى حكمهم، به يأخذون، وإليه يصيرون».. وقد تعدّدت مثل هذه الأحكام في حق الشعر، لتؤكد مبلغ الجودة التي وصل إليها قبل الإسلام.

وهذا ما فتح الباب لقضية أثيرت ولم يزل الاعتقاد عنها مستمراً لدى الكثير، وهي المتعلقة بحال الضعف التي أصابت الآداب والفنون، ومنها الشعر في مرحلة فجر الإسلام (عصر النبوّة والخلفاء الراشدين)، وهو الأمر الذي ناقشته كثير من الدراسات، فأرجعت بعضها الأسباب لانشغال الناس بتعلّم أمور الدين الجديد (الإسلام) عن الشعر وقوله، ورأت دراسات أخرى أن الآيات الكريمة الواردة في الشعر، ومنها قوله تعالى {والشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوونَ}، إنّما تخص بعضهم وليس الكل، وأنه توجد من الشعراء فئات مستحبة، ومنهم حسّان بن ثابت الذي أمره الرسول بهجاء الكفار، وقال في ذلك «إنّه أشدّ عليهم من وقع النبل»، وهو القائل:

**ونَعْلَـــمُ أنَّ اللـــــهَ لا رَبَّ غَيْــــــرُهُ**
**وأنَّ كِتــــابَ اللــــهِ أَصْبَـــحَ هادِيــا**






## تعدّدت التأويلات بشأن الآيات الواردة في شأن الشعر

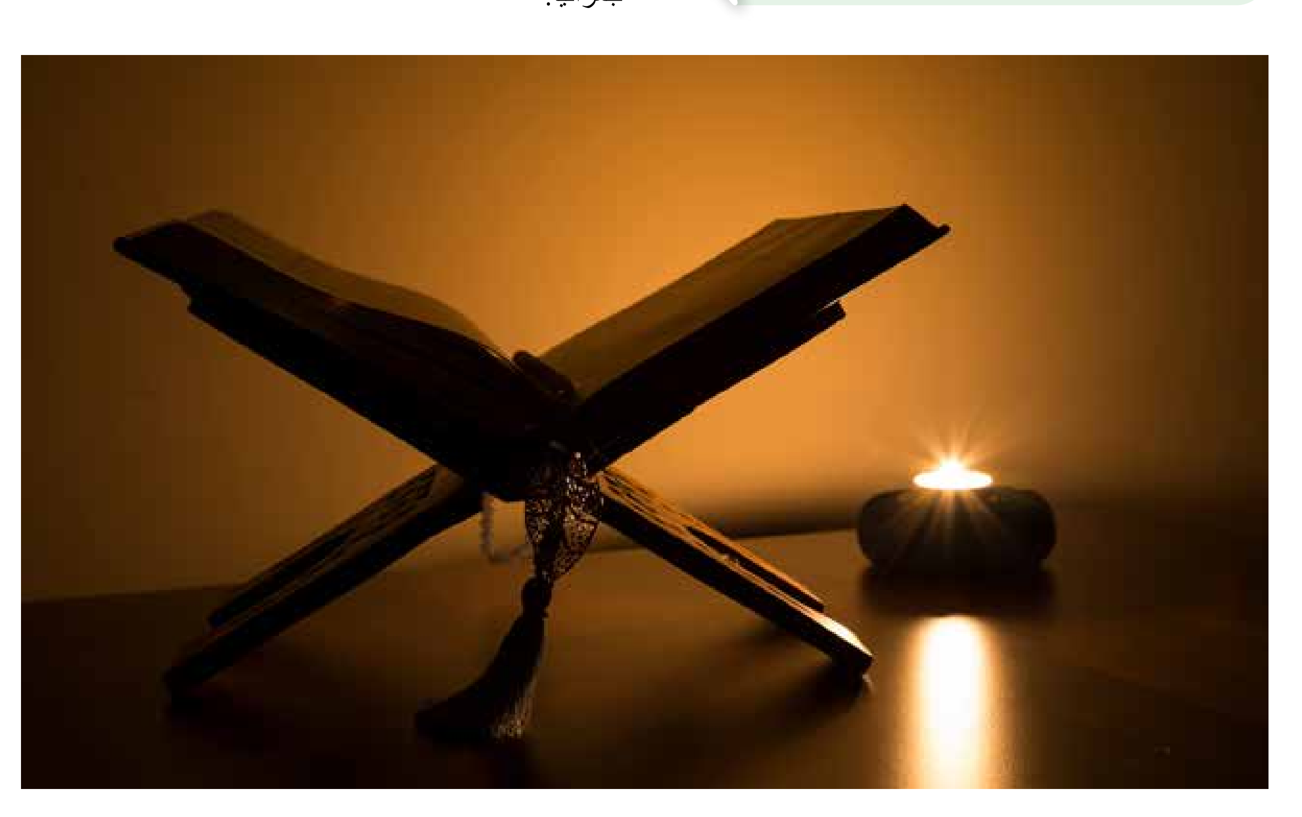
ومنهم الشعراء المخضرمون الذين كانوا يعلون شأن القيم والتقاليد التي توافقت مع الإسلام، ومنهم من تاب وأناب، مثل كعب بن مالك وعبدالله بن رَواحة.

وقد تعددت التأويلات بشأن الآيات الواردة في شأن الشعر، وبخاصة تلك التي تنفي عن الرسول، عليه السلام، الشاعرية، وتنفي عن النصّ القرآني الشعر، وهو ما فتح الباب للبحث في قضية «إعجاز» القرآن الكريم، الذي كان نواة لعلوم متعددة، أولها علم البلاغة بأقسامه الثلاثة: البَيان والمعاني والبديع.

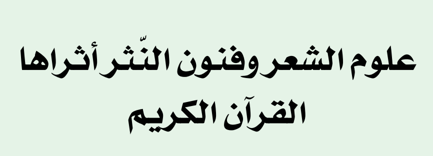
والواقع أن المتأمّل لهذه المرحلة ونتاجها الأدبي، قد يرى في الظاهر تراجعاً للإنتاج الشعري في الكمّ، قياساً إلى ما كان سائداً قبل الإسلام، وبخاصة مع ما كان يحدث من استخدام الشعر في التفاخر والتنابز، وتسجيل أحداث الحياة وانتصارات القبيلة، وما إلى ذلك من ممارسات منعتها تعاليم الإسلام منذ البداية.

أما في الباطن وتحليل النتاج الشعري في هذه المرحلة، فيكشف عن كثير من الملامح التي تطوّرت فيها القصيدة العربية، ما فتح الباب لاحقاً لتطوير الشعر العربي إجمالاً.

فعلوم الشعر وفنون النثر أثراها القرآن الكريم، بما استحدثه من تراكيب وأبنية وأساليب بلاغية لم تكن مسبوقة، وعلوم الخطابة ازدادت رواجاً مع شيوع استخدامها في الخطب والمناسبات الدينية (صلاة الجمعة أسبوعياً والعيدين وسائر المناسبات)، وفي شؤون الحياة الاجتماعية والسياسية، وبخاصة مع اتساع رقعة الإسلام جغرافياً.







## علوم الشعر وفنون النّثر أثراها القرآن الكريم

وتكفي في ذلك مطالعة قصيدة كعب بن زهير، التي مطلعها «بانَتْ سُعاد»، ويمكن تقسيمها إلى قسمين: الأول تشمله الأبيات من 1 إلى 37، وفيه سمات القصيدة الجاهلية، والثاني من 37 إلى 57، وفيه معاني الإسلام وتراكيبه، بدءاً من قوله:

**أُنْبئــتُ أنَّ رســـــولَ اللـــهِ أوعدَنـــي**
**والعَفــوُ عنــدَ رســولِ اللــهِ مَأمولُ**
**مَهلاً هَــداكَ الــذي أَعْطــاكَ نافلةَ**
**القُــرآنِ فيهَــا مَواعيــظٌ وتَفصيــلُ**

ويضاف إلى ذلك جميعه العمق الفكري الذي أتى به الإسلام، وبخاصة فيما وجه إليه من تفكّر في الكون من حولنا، وتدبّر لآيات الله في أرضه، وتأمّل لحركة النجوم والسماء، وفيما أخبره عن الأمم السابقة، وعن الحياة الآخرة، وغير ذلك مما عمل على إثراء القريحة العربية بعالم شبه خيالي، بمقياس هذه المرحلة. وهو ما كان له تأثيره في الحياة العقلية إجمالاً، وفي فنونهم التي كانوا يتقنونها بشكل خاص، وأهمها الشعر.

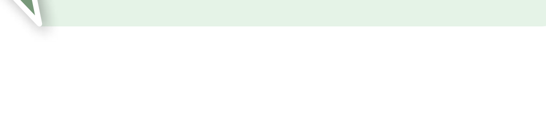
من هنا يمكن التمييز بين حال الشعر قبل الإسلام وبعده، ليس في الأبنية والتراكيب فقط، وإنّما في المعنى والموضوع والهدف والغاية والفكرة والخيال، وهو ما يعرفه المتخصّصون في ذلك.

إذ من المعروف والمتداول بين الباحثين ومؤرّخي الآداب والفنون، أن القرآن الكريم بوصفه النصّ الأرفع في تاريخ البشرية، لم يكن تأثيره في الجوانب الدينية والتشريعية فقط، وإنما تأثرت به الآداب والفنون كذلك، فانفتحت الآفاق أمام موضوعاتها، وتطور الخيال بما أحدثه القرآن من كلام عن الآخرة، والجنّة والجحيم والقيامة والعوالم الغيبية. واتّسعت المخيلة مع ما رُوي عن الأساطير القديمة وتاريخ الحضارات والأمم السابقة. وبرزت في الوجود معانٍ جديدة لم تكن مسبوقة، مثل الحلال والحرام، والثواب والعقاب، والدنيا والآخرة، والنعيم والعذاب، والجنة والنار.. وغيرها من مستجدّات لم تكن في المخيلة العربية.

فلو تأمّلنا هذا القول المبكّر لعبد الله بن رَواحة، في السنة الثالثة للهجرة، عندما استُشهد حمزةُ عمُّ الرسول في غزوة أحد:

**عليْــكَ سَلامُ رَبِّــكَ فــي جنـــــان**
**مُخــالَطُهـــا نَعــيمٌ لا يَـــزولُ**





**برزت في الوجود معان جديدة لم تكن مسبوقة**

فسنجد أبنية لغوية جديدة لم تكن متداولة قبلاً، ولم تكن مفاهيمها ذاتها مما يخطر على بال العربي (الجنّة والنعيم المقيم).

ولعل أبرز الملامح التي يمكن الكشف عنها في تطوير القصيدة العربية، بعد ظهور الإسلام، هي ذلك الاختلاف والتباين في الرؤية الشعرية للشعراء أنفسهم، حيث أوجد النصّ القرآني نوعاً من الجدل الفكري والعقدي، الذي استعان بالشعر وسيلةً إعلاميةً وحيدةً آنذاك، ومن ثمّ هيمن النصّ القرآنى بأبعاده ومفاهيمه على جانب كبير من الموضوعات الشعرية، لما جاء به من كلام أفصح، وأسلوب أعمق؛ فاستطاع أن يستولي على عقولهم بسبب نظمه وبلاغته التي لم يستطيعوا أن يجاروها، ومن ثمّ أشعرهم بضعفهم؛ ولما كان من عادة العرب أن يتحدّى بعضهم بعضاً في المساجلة بالكلام، والمقارضة بالقصيد والخطب، تحدّاهم القرآن في آيات كثيرة أن يأتوا بمثله أو بعضه: {وإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ}؛ هكذا طلب القرآن منهم إنشاء كتاب مثل القرآن. وكان قد نزلت قبل طلبه هذا سبع وأربعون سورة، وحار العرب في أمرهم لا يدرون كيف يأتون بكتاب مثل القرآن، حين حاولوا أن يردّوا على هذا التحدّي، فعجزوا ولكنهم لم ينصرفوا عنه، بل اتّكأوا عليه في استيراد تراكيب لغوية رفيعة منه، وفي اقتباس مفرداته، والتصوير بصوره.

وانظر إلى مستجدّات العرب في الرثاء بعد الإسلام، ومنه رثاء كعب بن مالك، لعثمان بن عفّان، بعد استشهاده، يقول:

**فكـفَّ يَديْـهِ ثــمَّ أغلـقَ بابَـهُ**
**وأَيْقــنَ أنَّ اللــهَ ليــسَ بغافــلِ**
**وقــالَ لمــنْ فــي دارِهِ: لا تُقاتلـوا**
**عفـا اللــهُ عَـنْ كلِّ امْرِئٍ لـم يقاتِلِ**

فقبل الإسلام كانت العادة التحدّث عن مناقب الراحل من جود وكرم وشجاعة، وبعد الإسلام غدا الحديث كما هو واضح عن الالتزام بشرع الله في إدارة الأمور، والامتناع عن القتال وإثارة الفتنة.

ومن جهة أخرى، ظهر من الشعراء من يبحثون في صميم العقيدة والعقيدة المضادّة، للاتّكاء عليها في فن الهجاء؛ بل إن الدعوة الإسلامية في حياة النبي، صلّى الله عليه وسلّم، بصفة خاصة، قد قامت على هذين الأمرين: الجهاد بالسنان، والدفاع عنها باللسان، وبتشجيع منه، مصداقاً لحديث عن كعب بن مالك، رضي الله عنه لمّا نزلت «والشُّعَراء يتّبعُهم الغاوون»: أتيت رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، فقلت: ما ترى في الشّعر؟ قال: «إنّ المؤمنَ يُجاهد بسيفِهِ ولِسانِهِ».

وهو ما دفع عبدالله بن جحش، للدفاع عن الإسلام في قصة اتّهام قريش للرسول، عليه السلام، وأصحابه بقتال عمرو بن الحضرمي، وقافلة قريش في الشهر الحرام؛ فقال يردّ على قريش مستفيداً مما أنزل الله في هذا من آيات قرآنية في سورة البقرة {يَسْأَلونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ}:

**تَعـدّون قَتلاً في الحَرام عَظيمـــةً**
**وأَعْظمُ منهُ لَوْ يَرى الرُّشـدَ راشِـدُ**
**صُدودُكــمُ عمّا يقــولُ مُحمّـــدٌ**
**وكُفْـــرٌ بــه واللــهِ راءٍ وشــاهِدُ**
**وإِخْراجُكم مِنْ مَسْجِــدِ الله أهْلَـــهُ**
**لِئَـــلاَّ يُــرى للهِ فــي البَيْتِ ساجِــدُ**

**تجاوز مجرد «التناصّ» باللفظ إلى التشاكل بالمعنى**

إذ إنّه للمرة الأولى في تاريخ الشعر العربي، تبدأ محاكاة النصوص الدينية على هذا النحو الموسع، بعد أن كان الأمر لا يتجاوز مجرّد استشهاد بكلمة، ليس إلّا، من التاريخي أو الديني، لكن الأمر هنا مختلف، لأنه تجاوز مجرد «التناصّ» باللفظ، إلى التشاكل بالمعنى، وهو ما فتح الباب للاستشهاد بالقرآن الكريم، ومحاكاة معانيه، والتعامل معها في القصائد الشعرية على نحو ظل يستمر ويتواصل، ممّا كشفت عنه دراسات التناصّ المعاصرة.

ولعلّ أهم ملمح يمكن ملاحظته في تطوير الشعر العربي، بفعل الإسلام في هذه المرحلة، هو ما رصده لاحقاً في القرن الرابع الهجري، عبد القاهر الجرجاني، في نظرية «النظم»، عندما رأى أن البلاغة التقليدية - كما كانت متحقّقة في الشعر الجاهلي- كانت تقوم على حسن اختيار الألفاظ، فيتقوّى المعنى بما يبذلهُ الشاعر من جهد في التقديم والتأخير، وفي الاستعارة.

أما بعد الإسلام، فإن القرآن قام في الأساس على فكرة أداء المعنى المراد بصورة جمالية مؤثرة في النفس، عبر العلاقات اللغوية (صوتيّاً بين الحروف، ونحويّاً بين الكلمات، وصرفيّاً باختيار بناء صرفي محدد) وهذه العلاقات الثلاث، هي التي تسهم في وضعية الدلالة وتأثيرها، بمفهومنا المعاصر.

كل ذلك ونحن ما زلنا نتأمّل تطوّر الشعر في مرحلة فجر الإسلام، على عهد النبي عليه السلام، والخلفاء الراشدين، ولم ننتقل بعد إلى رصد ملامح التحوّل في القصيدة العربية على زمن الدولة الأموية، وما داخل الشعر آنذاك من تطور حضاري له ملامحه وأبعاده، بفعل الانفتاح على شعوب أخرى غير العربية، وثقافاتها وبلدانها ولغاتها.

